جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
ISSN: 1112-4377, EISSN: 2588-2384
المجلد: 29 العدد 2. السنة 2025
مجلة المعيار
EL MIEYAR

منظومة سنن المدافعة والتجديد في القرآن الكريم وأثرها في النهضة الحضارية

The System of Divine Laws of Resistance and Renewal in the Holy Quran and Their Impact on Civilizational Renaissance

مراد بلخير[1]
Mourad.belkhir@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2025/01/30 تاريخ القبول: 2025/02/23 تاريخ النشر: 2025/03/22
Received: 30/01/2025 Accepted: 23/02/2025 published: 22/03/2025

ملخص المقال: يتطرق هذا البحث لتحليل سنن النهضة الحضارية في القرآن الكريم، وذلك في إطار استكشاف مقومات فعالية الإنسان لتحقيق الاستخلاف في الأرض على الوجه الأكمل، وهذا من خلال دراسة منظومات السنن الإلهية في القرآن وآثارها على حركة النهضة والفكر الحضاري، وتفترض الدراسة أن منظور السننية الشاملة الذي صاغه الطيب برغوث يحقق فهما متكاملا للمنظومات السننية في القرآن الكريم، ويسهم في تفسير المنظومات السننية الحاكمة على حركة الحضارة بشكل شمولي ومتكامل غير تنافري، وتُخصص الدراسةُ النظرَ في سنن المدافعة والتجديد، وهي جزء مهم من السنن المكونة لمنظور السننية الشاملة، وتخلص الدراسة إلى أن ترسيخ الثقافة السننية في المجتمعات يعتبر أهم عامل من عوامل النهوض الحضاري؛ لأن منظومات السنن الإلهية عند التعامل معها بنظر تكاملي تؤدي إلى الوصول لذروة مراحل الاستخلاف الذي ينشد توظيف المقدرات الحياتية كلها في خدمة منهج الله تعالى في الأرض.

كلمات مفتاحية: النهضة الحضارية، السنن الإلهية، سنن المدافعة، سنن التجديد، منظور السننية الشاملة.

Abstract:
This research analyzes the laws of civilizational renaissance in the Holy Quran, exploring the elements of human effectiveness in achieving optimal vicegerency on Earth. This is accomplished through studying the systems of divine sunan in the Quran and their effects on the movement of renaissance and civilizational thought. The study hypothesizes that the comprehensive sunan perspective formulated by Tayeb Barghouth achieves an integrated understanding of the divine law systems in the Holy Quran and contributes to explaining the governing systems of laws controlling civilizational movement in a holistic, integrated, and non-conflicting manner. The study focuses specifically on examining the law of advocacy and renewal, which is one of the constituent laws of the comprehensive sunan perspective. The study concludes that establishing a culture of divine laws in societies is considered the most important factor in civilizational advancement, as the systems of divine laws, when dealt with from an integrative perspective, lead to reaching the peak stages of vicegerency that seeks to employ all life capabilities in service of Allah's methodology on Earth.
Keywords: Civilizational Renaissance, Sunan Ilahiyya , Divine Laws of Resistance, Divine Laws of Renewal ,Manzur al-Sunaniyya al-Shamila

(1) جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر).

مقدمة:

إن البحث في موضوع النهضة الحضارية عادة ما يصاغ وفق رؤى تاريخية واجتماعية، على اعتبار أن بناء الحضارة إنما هو انسجام بين مكونات الإنسان والزمن والأرض، وهذه المنظومة بعناصرها الثلاث لكي تبقى فاعلة ومؤثرة تحتاج إلى أن تتوازن النسب بينها، ويعطى كل عنصر منها مقداره المناسب في المرحلة التاريخية التي تمر بها الحضارة، بيد أن الإنسان هو محور الفعالية في حركة النهضة لتحقيق الاستخلاف في الأرض على وجهه المطلوب، وهذا "الإنسان" حتى يكون ذا فعالية في الحركة التغييرية، لابد أن يتمتع برصيد ثقافي وقيمي، يكون هو الموجه له والمصاحب لأفعاله ونمط تفكيره.

والنهضة الحضارية لابد لها من عاملين مرتبطين بالإنسان، عامل الارتقاء الروحي الذي ينعكس عبر الفكرة الدينية، والتي تعتبر الوسيط الكيميائي لمعالجة وتفاعل مكونات الحضارة، وعامل الوعي السنني؛ فإن الغفلة عن السنن الإلهية قاضية لا محالة على أي ارتقاء حضاري، ومن الغفلة السننية أن يتم التغاضي عن سنن المدافعة والتجديد، هذه السنن التي تعبر عن منظور سنني كلي في حركة الحضارة، يتحكم في الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري، وقد قعَّد له المفكر الطيب برغوث، واعتبره القانون المتحكم في حركة المداولة الحضارية، حيث يرى أن فعالية التجديد الحضاري يعطي فعالية المدافعة الحضارية، وفعالية المدافعة الحضارية توصل إلى مرحلة المداولة الحضارية.

ومن خلال التبصر بمحورية هذا المنظور في حركة النهضة الحضارية، نطرح سؤال: ما أثر منظومة سنن المدافعة والتجديد في تحقيق النهضة الحضارية من منظور السننية الشاملة ؟ وما هي الآفاق المرجوة عند تفعيل هذا المنظور في مسارات الحياة الثقافية والاجتماعية ؟

إن أهمية دراسة النهضة الحضارية وفق هذا القانون يسهم في تحقيق نهضة حضارية تنقل الأمة من مرحلة الغثائية الحضارية إلى مرحلة الإقلاع الحضاري المتبصر بالوعي السنني الصحيح، وهو ما يضمن تحقيق ريادة حضارية مستدامة.

وبخصوص الدراسات السابقة حول هذا الموضوع؛ لم نطلع على دراسة خصصت النظر في موضوع النهضة الحضارية ضمن سنن المدافعة والتجديد، هذا بالرغم من كثرة الدراسات التي تناولت موضوع النهضة ضمن الأطر السننية الجامعة، وقد جمعت مؤلفات الطيب برغوث العديد من المعالم الهادية حول موضوع الدراسة، خصوصا في سلسلة كتبه المعنونة بـ: آفاق في الوعي السنني.

1. النهضة الحضارية وتحدياتها الراهنة:

إن تتبع السياقات اللغوية لمصطلح النهضة يدل على مستويات من الدلالة تجتمع في ما صاغه الجوهري في معجم الصحاح (الجوهري، 1987، صفحة1111): " نهض ينهض نهضا ونهوضا، أي قام. وأنهضته أنا فانتهض. واستنهضته

لأمر كذا إذا أمرته بالنهوض له. وناهضته، أي قاومته. وتناهض القوم في الحرب، إذا نهض كل فريق إلى صاحبه. ونهض النبت، إذا استوى ".

أما بخصوص الأصل اللغوي لهذا المصطلح فهو يدل على العلو بدلالتيه الحسية والمعنوية، جاء في معجم مقاييس اللغة (ابن فارس، 2008، صفحة875): " النون والهاء والضاد أصلٌ يدلُّ على حركةٍ في عُلُو "، ويتم تداوله في الاستعمال العربي للمفاهيم المعنوية كالأخذ بمعالي الأمور، والتحول من الدنايا إلى ما يرفع قيمة الإنسان في الحياة.

وبالنسبة لمفهوم النهضة المعاصر فإنه لا يبعد كثيرا عن أصالة معناه اللغوي، لكنه ارتبط بالكلمة الأجنبية "Renaissance" التي برزت بشكل كبير عقب الثورة الفرنسية، ومعناها "ميلاد جديد"، حيث استخدمها الأوربيون للدلالة على فترة معينة من تاريخهم، وما عرفته من تحولات سياسية واقتصادية، وما واكب هذه التحولات من تجديد في مجال الدين والفن والفلسفة والعلوم (النيفر، 2002، صفحة90).

ولم يغب العامل الديني عن تكوين هذا المصطلح وتشكيله الفلسفي، حيث إن النهضة الأوروبية كانت في حقيقتها ثورة ضد تسلط الكنيسة الكاثوليكية وتعطيلها لنشاط العقل وبحثه في الإلهيات؛ فبرزت حركة الإصلاح الديني البروتستانتي التي تُعتبر ثورة من أجل استرداد الحرية الدينية، بينما استبد مفهوم النهضة بالإصلاح السياسي والانفتاح الاجتماعي (بينتون، 1984، صفحة31).

ومدلول النهضة الحضارية يجتمع في تحصيل نوع من الوعي المجتمعي، لتحصين النسيج الفكري للمجتمع والانتقال به من حالة الركود إلى الرفعة المنشودة، وعندما تحدث مالك بن نبي عن النهضة الحضارية ومعادلتها الثلاثية، نجد أنه جعل الإنسان هو محور الفعالية في حركة النهضة، لتحقيق الاستخلاف في الأرض على وجهه المطلوب، وفي هذا الصدد ينبغي الانتباه إلى أنه اشترط في هذا "الإنسان" أن يكون ذا فعالية في الحركة التغييرية، ولن تحصل له الفعالية ما لم يتمتع برصيد ثقافي وقيمي، يكون الموجه له وهذا ما ينبغي أن يكون (بن نبي، 1985، صفحة101):" المهمة الأولى في خطة النهضة الإسلامية، لأن تحقيقه هو الذي يوجِدُ الشرط الأول لتحويل الجهود في نطاق هذه النهضة إلى جهود فعَّالة ".

والنهضة الحضارية عند مالك بن نبي لابد لها من عاملين، عامل الارتقاء الروحي الذي ينعكس عبر الفكرة الدينية التي هي الوسيط الكيميائي لمعالجة وتفاعل مكونات الحضارة، وعامل الوعي السنني؛ فإن الغفلة عن السنن الإلهية قاضية لا محالة على أي ارتقاء حضاري، وهو التحدي الأبرز الذي ينبغي بث الوعي فيه وتوجيه الأنظار إليه.

ويقف مؤرخو الحضارات عند المشكلات التي تواجه مسار أية حضارة عند هذا الوضع المختل، لكن قل أن يتم التنبيه على الوعي السنني الذي يعطي اندماجا بين المكونات الأساسية للحضارة، ويجعل تطور الإنسان في التاريخ والحضارة إنما يقوم على مقداره تعامله مع المكونات السننية للكون (عويس، 2014، صفحة43).

وبهذا يمكن إعادة تشكيل مفهوم الحضارة بما يتوافق مع المنظور السنني الذي يحقق أوصاف التكامل والانسجام مع الكون، فالحضارة باعتبار متعلقها الإنساني لا المادي يقول فيها مالك بن نبي (بن نبي، 2000، صفحة43): "هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدةَ الضرورية في هذا الطور أو ذاك من أطوار نُموِّه، فالمدرسة، والعمل، والمستشفى، ونظام شبكة المواصلات، والأمن في جميع صوره عبر سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعا أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه ".

وبخصوص التحديات الراهنة التي تواجه النهوض الحضاري فإن النموذج الحضاري المطروح والذي عليه قياس العامة هو ذلك النموذج الغربي القائم على مظاهر الحضارة الخارجية التي تركز على العمران المادي وتوظيف الآلة في مقابل ادخار الجهد الإنساني، وطغيان هذا الجانب من الحضارة قد غطى على الكثير من المشكلات الاجتماعية والثقافية التي تواجه بيئة الحضارة وتجعلها تتعدى على الكثير من الحقوق الإنسانية والحريات الفردية، والنظام السنني الذي ننشده في بناء الحضارة لا يغفل سنن البشر ولا يعزلها عن سنن المادة، يقول الطيب برغوث (برغوث، 1987، صفحة170): " ومن أكبر الظلم الذي يُنزله الإنسان بنفسه أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع (الآفاق والأنفس) فيهمل نفسه، ولا يضعها في المكان الذي يُسخِّر الآفاق والأنفس على أساس السنن المودعة فيها ".

ومن هنا نستدعي ما سماه مالك بن نبي بـ"الفكرة الدينية"، التي تتيح لنا نظرا متكاملا ومتعاليا –باعتبار استمدادها من الوحي– في دراسة الحضارة ومشكلاتها وتحليل معطياتها التاريخية، يقول مالك بن نبي (بن نبي، 1986، صفحة61): " إن المنهج الذي يتناول واقعة الحضارة لا على أنها سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها، بل كـ(ظاهرة) يرشدنا التحليل إلى جوهرها، وربما يهدينا إلى (قانونها) أي إلى سنة الله فيها، هو القادر –فيما أعتقد– على أن يستجلي لنا بطريقة أوضح، الدورَ الإيجابي الفعال للفكرة الدينية في تركيب تلك الواقعة، إذ يوضح لنا كيف تشرط هذه الفكرة سلوك الفرد وكيف تنظم غرائزه تنظيما عضويا في علاقتها الوظيفية ببناء إحدى الحضارات ".

هذه النظرة المتكاملة فيما نرجوها على مقتضيات النهوض الحضاري نستدعي معالجتها من المنظور السنني الذي يستمد تفاصيله من التأسيس القرآني، وذلك من خلال سنن المدافعة والتجديد.

2. مفهوم سنن المدافعة والتجديد في المنظور السنني الشامل:

سنن المدافعة والتجديد هي تدخل ضمن المكونات السننية الأساسية لمنظور السننية الشاملة عند الشيخ الطيب برغوث، في شقه المتعلق بسنن الوعي الاستخلافي، وقد صاغ الشيخ منظومته وفق رؤية قرآنية تكاملية تستدعي جميع المكونات السننية، وتربط فيما بينها بمنهج يدفع عنها التضارب والتنافر.

2. 1 أصول منظور السننية الشاملة:

يقوم هذا المنظور على أربع منظومات سننية كونية كبرى: هي منظومة سنن الوعي الكوني الغائي، ومنظومة سنن الوعي الاستخلافي، ومنظومة سنن الوعي التسخيري، ومنظومة سنن الوعي الوقائي الشامل، وكل منها يغطي مجالا من مجالات الحياة الإنسانية، فإذا استُوعبت واستُثمرت كلها، منحَت الحياة الفردية والحركة الاجتماعية والحضارية توازنها وانسجامها وفعاليتها المرجوة.

ويُستمد هذا المنظور من القرآن الكريم، حيث إن استقراء الآيات التي وردت في سياق البيان السنني تدور حول هذه المنظومات الأربع، إذ إن القرآن مهيمن على المعرفة السننية التي تحتاج إليها الخلافة البشرية في الأرض، ومهيمن على رشد الخبرات المعرفية الرسالية والبشرية السابقة له، ومهيمن على على الخبرات المعرفية المستقبلية التالية عبر الأزمان (برغوث، 2017، صفحة07).

ويمكن أن نضع تحت هذا المنظور في كلياته الأربع كل ما نجده من سنن إلهية في القرآن الكريم، دلت عليها النصوص الصريحة أو مضامينها العامة، وتفصيلها في الآتية:

1- منظومة سنن الوعي الكوني الغائي: تتضمن خمس قوانين كلية أساسية، وعليها تقوم المنظومات الأخرى، وتتجسد في: قانون التوحيد، وقانون الخلافة، وقانون العبودية، وقانون العمران، وقانون تهيئة الحياة الأخروية للإنسان.

2- منظومة سنن الوعي الاستخلافي: تتضمن أربعة قوانين كلية أساسية تفسر لنا كيف تتحرك الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ الإنساني في مساراتها الصاعدة أو المتقهقرة، وهي: قانون الابتلاء، قانون المدافعة، قانون المداولة، قانون التجديد.

3- منظومة سنن الوعي التسخيري: تتكون من أربع منظومات كونية كبرى تتوزع فيها سنن التسخير، وهي: منظومة سنن الآفاق، ومنظومة سنن الأنفس، ومنظومة سنن الهداية، ومنظومة سنن التأييد.

4- منظومة سنن الوعي الوقائي الشامل: وتتكون من مستويات ومراحل أساسية من الوقاية التي يجب ان تتوفر لكل حركة حتى تبلغ أهدافها المرجوة منها، وهي: الوقاية المبكرة التي تبدأ مع بواكير الفعل وعملية التخطيط له، والوقاية المرافقة التي تلازم عملية الإنجاز، والوقاية الاستدراكية التي تصحح ما يكتشف من النواقص التي لم يُلتفت إليها في المرحلتين السابقتين (برغوث، 2017، صفحة42).

2. 2 التكامل المنهجي بين منظومات السننية الشاملة:

إن التكامل المنهجي بين هذه المنظومات الأربع يظهر في استيفائها الاحتياجات الحضارية التي يحث عليها الخطاب القرآني، وتضمن للإنسان الشروط الموضوعية المتوازنة لتنمية كل ملكاته وقدراته وأبعاد شخصيته، ويحافظ على هويته الإنسانية، ويترقى بها في مدارج الإنسانية، من خلال علاقته المتوازنة والمتكاملة بكل معطيات منظومات سنن التسخير الكونية الكلية الأربع التي وضعها الله تعلى بين يديه، فمثلا في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: 55] استوعبت هذه الآية سنن الوعي بالغايات الكونية للإنسان وهي أول منظومات المنظور السنني الشامل، يظهر ذلك في قانون الاستخلاف ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾، وقانون العبودية ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾، وقانون التوحيد ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾، وتتوالى الإشارات القرآنية على ارتباط هذه القوانين بعضها مع بعض، قال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود: 61] يظهر جليا من الآية استمداد قانون العمران وأنه لا يمكن أن ينفك عن قانون التوحيد والعبودية.

وفي طرف آخر من تكامل هذه المنظومة يتحقق مبدأ الاستخلاف عند تكامل قوانينه الناظمة له والحاكمة على نجاحه، فعند تتبع الظاهرة الحضارية ودورتها في تاريخ البشر نجد أن سنن المداولة الحضارية هي التي تتحكم فيها، والمداولة الحضارية تحكمها سنن المدافعة الحضارية، وفعالية سنن المدافعة تتحكم فيها سُنَنُ التجديد الحضاري (برغوث، 2017، صفحة21)، نلمس ذلك جيدا في قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: 140]فالتذكير بسنن المداولة على اعتبار أنها هي المهمينة على مسارات الأمم والمتكررة على النظام السنني الثابت، ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾، لكنها محكومة بسنن المدافعة، ومن سماتها الابتلاء ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾، ليكون النجاح في سنن المدافعة مؤهلا لنيل سنن التجديد الحضاري، وبالتالي تحقيق مبدأ الاستخلاف على أكمل وجه ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾.

2. 3. المنظور السنني القرآني والظاهرة الحضارية:

إن المقاصد الكلية للقرآن الكريم عند تدبرها نجد أنها تُسهم في بناء الوعي المتكامل بالظاهرة الحضارية وما نحتاجه فيها من قوانين كلية تتحكم فيها، حتى يكون السير على خط المداولة الحضارية سليما وسديدا، والفعالية الإنجازية المؤسَّسة على المعرفة السننية المتكاملة هي روح رسالة الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم إلى البشرية جميعا، وهي أساس المفاضلة

بين الأفراد والجماعات البشرية، فمن ينسجم مع المنظومة السننية يكون مستوى إنجازه الحضاري أعلى وأرقى ويصل إلى مرتبة الرشد وتكون لديه السلطة الحضارية (برغوث، 2017، صفحة34)، والمتأمل في وصف الابتلاء في سياقات القرآن يجد ذلك جليا: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48] ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: 165] ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: 2].

لذا ينبغي التركيز على شحذ الجهود وتركيز الاهتمام على ما يخدم جوهر الخلافة في الأرض، وعلى ما يجعل الإنسان أكثر قدرة على الاستجابة الفعالة لحاجات وتحديات العمران الحضاري، ويبعده عن كل ما يبدده طاقاته ويشتت جهوده ويصرفه عن أولوياته.

والقرآن الكريم عندما يتعرض للظاهرة الحضارية؛ فإنه يتناولها بمنطق علمي وعقدي واضح، ليضفي على المعرفة الحضارية اليقين اللازم لمباشرة السعي والعمل دون شك أو اضطراب في تفسير الخطوات اللازمة للإنجاز الحضاري، فالقرآن علَّمنا أن الكون قائم على نظام سنني مطرد لا يتغير ولا يتبدل، وهذا أدعى لتكافؤ الفرص والحرص على العمل، قال تعالى: ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: 43] وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: 20].

فخضوع الكون كله إلى أنظمة سننية محكمة مطردة هي القاعدة العقدية والمعرفية الأساس التي تقوم عليها رؤية الإسلام للكون والحياة، ويتأسس عليها تحليل القرآن للظاهرة الحضارية وحركة الاستخلاف البشري (برغوث، 2017، 71).

وهذه السلطة الثابتة للسنن في نظام الكون، وفي حياة الإنسان، وحركة الحضارة والتاريخ، بالرغم من أنها تمثل قدر الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49]، وقال أيضا: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) ﴾ [الفرقان: 2]، إلا أن الإيمان الوثيق بذلك لا ينبغي أن ينسينا لحظة بأنها تظل في النهاية محكومة بالإرادة والمشيئة الإلهية المحيطة بكل شيء والنافذة في كل شيء، خاصة في ضوء العلم الإنساني المحدود والمتغيرات الذاتية والخارجية المختلفة التي تكتنف الدورة الإنجازية للفعل الإنساني، قال تعالى: ﴿﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: 23، 24] (برغوث، 2017، 74).

3. قانون المدافعة والتجديد في سياق النهضة الحضارية:

وإذا أردنا استخلاص الإطار العام لصناعة الحضارة في حركة الاستخلاف البشري؛ فإنه لا يخرج عن سنن المدافعة والتجديد، يقول الطيب برغوث (برغوث، 2017، صفحة85): "حركة التاريخ الحضاري البشري تحكمه باستمرار نظرية أو سنة المدافعة والتجديد، وأن الموقف الفكري والعملي من معطيات ومقتضيات هذه المدافعة وهذا التجديد هو الذي يحدد طبيعة ومسار وأفق المداولة الحضارية، ومداها التاريخي بشكل مستمر لا يتغير، وإذا أردنا استخلاص الإطار العام لصناعة الحضارة في حركة الاستخلاف البشري فإنه لا يخرج عن سنن المدافعة والتجديد، قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 62]".

3. 1 قانون المدافعة والتأسيس للنهضة الحضارية:

تأتي سنن المدافعة الحضارية لتؤسس لمنطلقات حركة الاستخلاف الحضاري في الأرض، والمدافعة قانون تستدعيه سنن الابتلاء، حيث إن أمانة الاستخلاف في الأرض لابد أن تعترضها حركة الابتلاء؛ لتتجلى من خلالها آثار التكليف الرباني للإنسان في الأرض، فالتكليف منظومة متكاملة ليتحقق الوجود الإيجابي للإنسان ويصدر منه النفع والخير، وهو يتجاوز منظومة الأوامر والنواهي في العلاقة مع الله إلى العلاقة مع الكون عن طريق حسن تسخير الملكات وحسن التعامل مع المقدرات في الأرض، والابتلاء لابد له من مدافعة حضارية، فهو يتجسد من خلالها، فالابتلاء يقتضي مدافعة الأهواء النفسانية والشرور الخارجية الصادرة من عدة نواحي تحاول أن تقضي على عمل الإنسان بالفساد، وقد أسس القرآن الكريم لمنظومة المدافعة في عدة آيات خصوصا ما يدل منها على مجاهدة النفس والشيطان والهوى وكل المفسدات العارضة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: 251].

ويضع الطيب برغوث سنن المدافعة الحضارية ضمن محورين أساسين هما:

– محور المدافعة الإبداعية: ويقصد بها المدافعة الابتدائية من غير أن تكون أثرا أو ردة فعل لعمل فاسد أو محاولة صد عن الخير، فهي مدافعة ضد نوازع الخمول في النفس الإنسانية، ودفع باتجاه الإيجابية في تسيير حركة العمران البشري، وهذه المدافعة تجعل الفرد منشئا للخير ومؤسسا للحق، فلا يقع في دائرة ردود الفعل التي تستهلك منه جهودا مضاعفة وتبدد طاقاته في مقابل الإنتاج الحضاري.

– محور المدافعة الوقائية: وهي المدافعة لأجل إزالة العوائق أمام حركة التجديد والبناء، والسعي لإصلاح الخلل الحاصل في الأفعال البشرية (برغوث، 2017، صفحة97).

وقد كان منهج الأنبياء عليهم السلام شاملا للمحورين، غير أن محور المدافعة الوقائية كان له النصيب الأكبر نظرا لما اعترى البشرية من فساد في التعامل مع قضية الألوهية، وقد أتى كلُّ نبيٍّ بما يدفع حجج أهل الشرك وما يصحح معتقداتهم.

3. 2 سنن التجديد وصناعة الحضارة المتوازنة:

إن حركة المدافعة الحضارية التي حث عليها القرآن وجعلها محور السعي الإنساني في دار التكليف تصب في تحقيق سنن المداولة الحضارية، إذ الوصول إلى التمكين والريادة يمر عبر نجاح السعي في سنن المدافعة، وهذا حتى يكون سعي الإنسان في منظومة المدافعة محققا لغرضه، ويتأسس هذا التنظيم السنني من عدة آيات في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: 140]، يقول الطيب برغوث (برغوث، 2017، صفحة98): " فكل الأفراد والجماعات البشرية تتدافع ذاتيا وثقافيا واجتماعيا وحضاريا من أجل تحقيق المداولة الحضارية في نهاية المطاف، سواء بالمحافظة على مركز المنافسة أو الريادة الحضارية الذي تم بلوغه، وعدم التقهقر فيه، أو بالسير قُدما نحوه والحرص على البلوغ إلى ذراه، أو بالعمل على إعاقة القوى المتخلفة أو الناهضة عن مبارحة تخلفها وتحقيق نهضتها الحضارية، وإبقائها في دائرة الاستضعاف ".

ثم إن حركة السنن الإلهية لا تتوقف عند منظومة سنن المدافعة والمداولة، وإنما يصل القصد في منظومة سنن الاستخلاف إلى أهم منظومة سننية فيها وهي سنن التجديد، فمنظوماتُ السنن الإلهية تُفضي بالإنسان لا محالة إلى الوصول لذروة الاستخلاف الذي ينشد توظيف المقدرات الحياتية كلها في خدمة منهج الله تعالى في الأرض، والتجديد هو تلك المحطة العليا التي لا تأتي إلا على أكمل أوصاف الحضارة والرقي الإنساني، يقول الطيب برغوث (برغوث، 2017، صفحة102): " فالتجديد .. هو محرك التاريخ، والمؤثر الرئيس في صيروراته الحضارية بشكل مطرد "، والمتأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يمايز بين عدة محطات في دعوته صلى الله عليه وسلم للناس، من محطة الابتلاء في مكة لغرض التبليغ وإيصال المنهج الحق للناس رغم العوارض، إلى غاية حدث الهجرة الذي تأسست معه محطة المدافعة، وفيه حصلت عدة غزوات دُفع بها الباطل ونصر فيها الحق، وهذا ما قاد المجتمع الإسلامي إلى الوصول لمرحلة التجديد في صناعة النموذج الحضاري الأمثل على الإطلاق، وقد حث القرآن الكريم المسلمين على النظر المفضي إلى الوصول لنموذج التجديد الحضاري من رحم المعاناة والضعف، وذلك من خلال القصص القرآني الذي يسترد مصائر الأمم السابقة ومنهج تعاملها مع السنن كما في قصة موسى وقومه مع فرعون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: 4، 5]

إن النموذج الحضاري الذي يسير في ركب السنن الإلهية يحقق أهم خاصية من خصائص الحضارة وهو التوازن بين مكوناتها الأساسية، فلا يطغى مكون على غيره من المكونات، وهذا ما يحقق نموذج القياس الصحيح لحياة الأمم في طور عزتها وتمكنها، فبقدر محافظتها على منهج متوازن في صناعة الحضارة بقدر ما يطول أمد بقائها في مراتب العز والسيادة، وتجارب التاريخ في حياة الأمم تنبئنا عن أن نجاح أي نهضة هو مرهون بمدى تمسكها بمقومات التجديد المتكامل.

خاتمة:

نقف في نهاية هذا البحث عند أهم الخلاصات التي نتوصل إليها من البحث في موضوع النهضة الحضارية من خلال قانون المدافعة والتجديد:

- تقوم النهضة الحضارية على أساس الوعي السنني الذي يحقق الغايات الكبرى للوجود الإنساني وفق منهج القرآن، والغفلة عن السنن الإلهية قاضية لا محالة على أي ارتقاء حضاري.

- منظومة سنن المدافعة والتجديد هي إحدى المنظومات المكونة لمنظور السننية الشاملة، وتندرج ضمن منظومة سنن الوعي الاستخلافي، وهي التي تفسر حركة الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ الإنساني.

- إن خضوع الكون كله إلى أنظمة سننية محكمة مطردة هي القاعدة العقدية والمعرفية الأساس التي تقوم عليها رؤية الإسلام للكون والحياة، ويتأسس عليها تحليل القرآن للظاهرة الحضارية وحركة الاستخلاف البشري.

- حركة التاريخ الحضاري البشري تحكمه باستمرار نظرية أو سنة المدافعة والتجديد، والموقف الفكري والعملي من معطيات ومقتضيات هذه المدافعة وهذا التجديد هو الذي يحدد طبيعة ومسار وأفق المداولة الحضارية.

المصادر والمراجع:

1- ابن فارس أحمد بن زكريا، مقاييس اللغة، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1429هـ/2008م.
2- الجوهري بن حماد، الصحاح، دار العلم للملاين، بيروت، ط04، 1987.
3- الطيب برغوث، مدخل إلى أصول منظور السننية الشاملة، أكاديمية الثقافة السننية للتجديد الحضاري، الجزائر، 2021.
4- الطيب برغوث، مدخل سنني إلى النظرية الكلية في فقه العمران الحضاري في ضوء القرآن الكريم، دار النعمان، الجزائر، 2017.
5- الطيب برغوث، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، دار النعمان، الجزائر، 2017.
6- الطيب برغوث، معالم هادية على طريق الدعوة إلى الإسلام، دار الشهاب، الجزائر.
7- عبد الحليم عويس، فلسفة التاريخ، دار الصحوة، القاهرة، ط01، 2014.

8- كرين بينتون، تشكيل العقل الحديث، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر:1984هـ.

9- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، ط01، 2000.

10- مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، 1986.

11- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر، دمشق، سورية، 1405هـ/1985م.

12- محمد وقيدي واحميدة النيفر، لماذا أخفقت النهضة العربية، دار الفكر، دمشق، سورية، ط:01، 2002م.

References :

- Ibn Fāris, Aḥmad ibn Zakariyā, Maqāyīs al-Lugha, Dār al-Ḥadīth, al-Qāhira, Miṣr, 1429/2008.
- Al-Jawharī ibn Ḥammād, Al-Ṣiḥāḥ, Dār al-ʿIlm lil-Malāyīn, Bayrūt, 4th ed., 1987.
- Ṭayeb Barghūth, Madkhal ilā Uṣūl Manẓūr al-Sunaniyya al-Shāmila, Akādīmiyyat al-Thaqāfa al-Sunaniyya lil-Tajdīd al-Ḥaḍārī, al-Jazāʾir, 2021.
- Ṭayeb Barghūth, Madkhal Sunanī ilā al-Naẓariyya al-Kulliyya fī Fiqh al-ʿUmrān al-Ḥaḍārī fī Ḍawʾ al-Qurʾān al-Karīm, Dār al-Nuʿmān, al-Jazāʾir, 2017.
- Ṭayeb Barghūth, Madkhal Sunanī ilā Kharīṭat al-Maqāṣid al-Kulliyya fī al-Qurʾān al-Karīm, Dār al-Nuʿmān, al-Jazāʾir, 2017.
- Ṭayeb Barghūth, Maʿālim Hādiya ʿalā Ṭarīq al-Daʿwa ilā al-Islām, Dār al-Shihāb, al-Jazāʾir.
- Abd al-Ḥalīm ʿUways, Falsafat al-Tārīkh, Dār al-Ṣaḥwa, al-Qāhira, 1st ed., 2014.
- Crane Brinton, Tashkīl al-ʿAql al-Ḥadīth, translated by: Shawqī Jalāl, Silsilat Kutub ʿĀlam al-Maʿrifa, al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfa wa-l-Funūn wa-l-Ādāb, al-Kuwayt, October 1984.
- Mālik ibn Nabī, Al-Qaḍāyā al-Kubrā, Dār al-Fikr, Dimashq, 1st ed., 2000.
- Mālik ibn Nabī, Shurūṭ al-Nahḍa, Dār al-Fikr, Dimashq, 1986.
- Mālik ibn Nabī, Mīlād Mujtamaʿ, Dār al-Fikr, Dimashq, Sūriya, 1405/1985.
- Muḥammad Waqīdī wa-Ḥamīda al-Nīfir, Limādhā Akhfaqat al-Nahḍa al-ʿArabiyya, Dār al-Fikr, Dimashq, Sūriya, 1st ed., 2002.